

## الجزء الثاني والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا  
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### شرح المفردات

يقنت : أى يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريماً : أى سالماً من كل آفة وعيب .

#### المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، فى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

## الإيضاح

(ومن يقنت منكنَّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة ومنزل الوحي ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعدنا لها الكرامة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأنها تكبرن مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين ، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما في الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ  
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ  
وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِنَّ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ  
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ  
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

## شرح المفردات

أصل أحد وخذ بمعنى الواحد وهو في النقي عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف في اللغة قال النابغة :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقنتنا باليد

أى استقبلتنا باليد قاله أبو حيان في البحر، ومنه قوله تعالى : « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ». فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع لئن، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلن الكلام ولا ترقفنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولاً معروفاً : أى حسناً بعيداً من الريبة غير مُطْمَعٍ لأحد ، قرن ، من قرَّ يقرُّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشئ القدر ؛ والمراد به هنا الإثم المدنس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكن ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحداً حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيراً ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم من السنة .

### الإيضاح

( يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ) أى يا نساء النبي إذا استقصيت النساء جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساو يكن فى الفضل والكرامة .  
والخلاصة — إنه لا يشبهكن أحد من النساء ولا يلحقكن فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا) أى إذا استقبلتن أحدا من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع في الخيانة من في قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق ، وقلن قولا بعيدا عن الريبة غير مطمع لأحد .

وتفسير الاتقاء بهذا المعنى أبلغ في مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهين عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله في أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متخليات بالتقوى قاله في البحر ، وقال في الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات اه ، يريد إن اتقيتين مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإجمال هذا — خاطبن الأجانب بكلام لا تخيم فيه للصوت ولا تخاطبهنم كما تخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن في بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لمن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبرزاري عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها » .

(ولا تهرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدين زينتك ومحاسنك للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك في الجاهلية قبل الإسلام .  
وبعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعا ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار في طهارة النفس وطهارة المال ،

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تدرن واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهي .

ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام فقال :

( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعلّق بأرباب الذنوب والمعاصي .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبى أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : «شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهم من أن يبوتن مهابط الوحى بقوله :

( واذا كن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ) أى واذا كن نعمة الله عليكم بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكم . ولا يخفى ما فى هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كلفنّه ، كما لا يخفى ما فى تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة فى صلاح المجتمع فى معاشه ومعااده ، فمن استمسك به رشّد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

( إن الله كان لطيفا خبيرا ) أى إن الله كان ذا لطف بكنّ ؛ إذ جعلكن

فى البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ  
 وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ  
 وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِعِينَ وَالصَّائِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ  
 وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً  
 وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

### شرح المفردات

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من  
 أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة في سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكروه  
 والعبادات والبعد عن المعاصي ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد الله لهم مغفرة :  
 أى هيا لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أى نعيما عند ربهم يوم القيامة .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى ،  
 ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ،  
 روى أحمد عن عبد الرحمن بن شعبة قال : «سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم  
 تقول : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : مالنا لانذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟  
 قالت فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى  
 ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر  
 يأيتها الناس إن الله يقول في كتابه : ( إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات -  
 إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

## الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التي يستحق بها عباده أن يمحو عنهم ذلالتهم ويثيبهم بالنعم المقيم عنده وهي :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل .  
 (٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة كما قال: « أَمَّ مَنْ هُوَ قَائِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع .

(٤) الصدق في الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمانة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفي الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار » .

(٥) الصبر على المكروه وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفاً من عقابه كما جاء في الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصديق بالمال والإحسان إلى الخيروج الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت في الصحيح « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفي حديث آخر « والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكّيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، مَن ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . » .

(١٠) ذكر الله ذكراً كثيراً بالألسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً . وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلياً ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات . » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » . وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أ أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أ أكثرهم لله ذكراً . فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل . » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحون عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

### قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ،  
زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهي إعطاء المتبنى حكم  
الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ  
لَهُمْ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا  
مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ  
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ  
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَمَا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِسْكِيلًا يَكُونُ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ  
اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ  
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَافُوا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ  
يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ  
حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ  
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

### شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لا ينبغي له ، والخيرة : الاختيار ، ميبنا :  
أى ظاهر الانحراف عن سنن الصواب ، أنعم الله عليه : أى بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتفق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتحشى الناس : أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجنا كها : أى جعلناها زوجة لك ، والخرج : المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكاننا لا بد منه .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخير زوجته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميلا إلى شيء ممكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شيء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لاختيار المؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبي صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبيها .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمه النبي صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاد زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مِداً من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبي بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأعداء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعدده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعوى جميع حقوق الابن ويحجرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

محو ذلك بالإسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال في أول السورة « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعوى إلى من تنبأه ، وأن يكون للمتبنّى إلاحق المولى والأخ في الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ في النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تسخر بسلطانها ، ولا تجعل لها حكما في الأعمال إذا كانت المصلحة في خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول في أحد عتقاه ، ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزید وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهي جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يقبله الحياء حينئذ في تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليريق حجاب تلك العادة كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

## الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله ورسوله وقضاءهما ويعصياها .

والخلاصة — لا ينبغي المؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .  
ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله  
فيا أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد  
علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ  
أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور  
ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله)  
أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذى أنعم الله عليه فوفقه للإسلام وأنعمت  
عليه بحسن تربيته وعتقه وتقرّيبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله  
فى أمرها ولا تطلقها ضاررا وتملأا بتكبرها وشموخا بأنها ، فإن الطلاق يشينها ،  
وربما لا يجد بعدها خيرا منها .

وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر  
منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء  
والاحشام ، وكلاهما مما لا ينبغي أن يكون مع زيد مولاة .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه بما أهلك  
الله أن تمثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك ، وإنما غلبك  
فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك  
ما الله مبديه من الحكم الذى أهلك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذي أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه، فكان عليك أن تمضي في الأمر قُدماً  
تعميلاً لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

( فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج  
أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملأها ثم طلقها  
جعلناها زوجا لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجا من  
أن يتزوجوا نساءكن من قبل أزواج أدعيائهم .

( وكان أمر الله مفعولا ) أى وكان ما قضى الله من قضاء كائنا لاحالة ؛ أى إن  
قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله كأن ماض لا بد منه .

روى البخارى والترمذى « أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي  
صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات »  
وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : « كانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدرك  
عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدركُ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإني  
أنتكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

( ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ) أى ليس على النبي حرج فيما  
أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا في الرسل فيما أباح له من  
الزوجات والسراى فقال :

( سنة الله في الذين خلوا من قبل ) أى إن الله سن بك أيها الرسول سنة  
أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسراى ،  
فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفي هذا رد على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائنا لا مجاله  
 وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .  
 ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ  
 رسالته فقال :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء  
 الذين جعل محمد متبعاً سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى  
 من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .  
 والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه  
 يحملك ممن يريدك بسوء أو يمسيك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرنا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا  
 لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليمة ابنة فأنزل الله :  
 ( ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ) أى  
 ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبنك لا ابنك ، فإنك لست  
 أباً لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب  
 لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب  
 كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد أب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة  
 المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب للمؤمنين جميعا فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله  
 وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش  
 والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

## أولاد النبي صلى الله عليه وسلم

ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والظاهر ، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحلم ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ومات رضيعا ، وولد له من خديجة أربع بنات : زينب ورُقِيَّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد مات الثلاث الأول في حياته صلى الله عليه وسلم ، وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .  
(وكان الله بكل شيء عليما) فيعلم من هو الأجدد بالبدء به من الأنبياء ، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم ، ويعلم للمصالح في ذلك .  
ونحو الآية قوله : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه وإخلاصه له في السر والعلن ، وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيتارهم على نفسه فيما يطلبون كما يوصى إلى ذلك قوله : ( يا أيها النبي قل لأزواجك ) الخ ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلًا ، فهو الذى يرحمهم وملائكته يستغفرون لهم كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده للمؤمنين رحيمًا .

## الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى وترهه عما لا يليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعد كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومى ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا - هو الذى يرحمكم ويثنى عليكم فى الملائكة من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لا يخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم - أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّره الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحيتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييتهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : «والملائكة يدخُلون عليهم من كل باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم» .

( وأعدّ لهم أجرا كريما ) أى وهيا لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشرب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله - ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

### الإيضاح

( يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ) أى يا أيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر ما يفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة إن صدقوك ، وعلموا بما جنتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

( وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدايته تعالى ، وسائر ما يجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن -

وسراجا منيرا يستضيء بك الضالون في ظلمات الجهل والغواية ، و يقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون مناهج الرشd والسعادة .

( وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ) أى وراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، فإنهم سيقبرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصلاح ، ويدخلون الأمم المتعثرة في أبواب الضلال في زمرة الأمم التى عليها صلاح البشر فى مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيَعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » .  
ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

( ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، وأصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتىك أمره وقضائده ، وهو حسبك فى جميع أمورك ، وكالك وكراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

### شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمس معروف ؛ والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتفشى والإتيان ، والعدّة : الشىء

المعدود ، وعدة المرأة : الأيام التي باقتضائها يحل بها التزوج ، فتمتعوهن : أى أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار ( مانعطى به المرأة رأسها ) وملحفة ( مانتتحف به من قمرها إلى قدمها - ملاية ) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكن ، سراحا جميلا : أى إخراجا مشتملا على لين الكلام خاليا من الأذى .

### المعنى الجملى

أدب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأيتها النبي اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله : يأيتها النبي قل لأزواجك ، وثلت بذكر معاملته لأتمته بقوله : يأيتها النبي إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبي مكرمة ، وعله أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأيتها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأيتها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ، وفيما يتعلق بمعاملتهن لنبيهم فقال : لا تدخلوا بيوت النبي الخ ، وقال : يأيتها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

### الإيضاح

أى يأيتها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل المسيس ، فلا عدة لكم عليهن بأيام يقربصن بها تستوفون عددها ، ولكن اكسوهن كسوة تليق بجاهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك باختلاف البيثة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيشواهن من المركب والزاد وجميل المعاملة مانعتره به أعينهن ويسرته به أهلهن ؛ ليكون فى ذلك بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع المشرة التي كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلمها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين ( ضرب من الثياب مشهور في ذلك الحين ) .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ  
وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ  
وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً  
إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ  
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُهُمْ كِتَابًا يُكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

### شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ : أى ما أخذته من اللغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

### الإيضاح

( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ) أى يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ الْأَزْوَاجَ اللَّاتِي أُعْطِيْتَهُنَّ مَهْرَهُنَّ ، وقد كان مهره عليه السلام لثلاثين عشرة أوقية ونصف أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمرها عنه النجاشي رحمه الله أربع مائة دينار .

( وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ) أى وَأَحْلَلْنَا لَكَ الْإِمَاءَ اللَّوَاتِي سَبَيْتَهُنَّ فَلَمَّكْتَهُنَّ بِالسَّبَاءِ ، وصرن لك من الفء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حيى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجويزية بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكانتا من السراري .

( وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ) أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُّدِّي عن أبي صالح عن أم هانئ قالت : « خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعدرتني ؛ ثم أنزل الله تعالى : ( إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله - اللاتي هاجرن معك ) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء » .

( وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التي تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله في برّوع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصدّق مثلها .

والموت والدخول سواء في تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوضة شيء لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صدّق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها .

( قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم ) أى قد علم الله ما ينبغي فرضه على المؤمنين في أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفي الإيماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل للمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والجنسية - وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتي :

ثم ذكر العلة في اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :  
 ( لكيلا يكون عليك حرج ) أى أحطنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق  
 في نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .  
 ( وكان الله غفورا رحيما ) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ،  
 رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُوْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ  
 عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ  
 بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

### شرح المفردات

ترجي : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرى ترجى ، وتووى : أى تضم  
 وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت ، عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرئ :  
 أى تسرئ .

### الإيضاح

( ترجى من تشاء منهم وتووى إليك من تشاء ) أى تؤخر مضاجعة من تشاء  
 من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر في ذلك  
 إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

( ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ) أى ومن دعوت إلى فراشك ،  
 وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك في ذلك .  
 والخلاصة : إنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبي رزّين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمساً : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفية وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء . » .

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك في مصلحتهن ، فقال : ( ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن ) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لمن اختياراً منك لا وجوباً عليك - فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لمن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لمن ، وعدلك بينهن .

( والله يعلم ما فى قلوبكم ) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .  
روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تمنى فيما تملك ولا أملك »  
يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله من ذلك ، وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على توأطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

( وكان الله عليماً حليماً ) أى وكان الله عليماً بالسرائر ، حليماً فلا يعاجل أهل الذنوب بالمقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القسَمَ لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تحریم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : ( ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن . )

### الإيضاح

تتضمن الآية الكريمة حكيمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(١) ( لا يحل لك النساء من بعد ) أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنعهن في ذلك .  
« لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .

وروى عن ابن عباس أنه قال في الآية : ( حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه ) .  
(٢) ( ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك )  
أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتتكح بها أخرى مهما كانت بارعة في الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فقتلها وأولدها إبراهيم ومات رضيحا .  
وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبه قال : « خطبت امرأة فقال لى النبي

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

( وكان الله على كل شيء رقيباً ) أى وكان الله حافظاً ومطلماً على كل شيء ،  
علماً بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

### آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى  
طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا  
وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ  
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ  
حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا  
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ  
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبَدُّوا سُيُنًا أَوْ تُخْفَوُوهَا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا (٥٤) .

### شرح المفردات

إناء : أى نضجه : يقال أى الطعامُ يَأْنِي أَي ؛ أى أدرك وفرغ ، وفيه لغات :

إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصوراً وممدوداً قال الخطيئة :

وأخرت العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الأناء

فانتشروا : أى فنفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أى مستمعين له ، متاعاً :

أى شيئاً تتمتعون به من ماعون وغيره ، أظهر لقبوكم : أى أكثر تطهرا من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء وللنساء في شأن الرجال .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبي صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إرشادا لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم في خلوته وفي الملا، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان في الخلوة بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » الخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان في الملا بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطمعوا ثم جاسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيا للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ) الآية .

### الإيضاح

أدب الله عباده بأداب ينبغي أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال:

(١) ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ

تأخرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لا تدخلوا بيوت نبي الله إلا أن تُدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده ، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم ، وقد يلبس ثياب البذلة والعمل فلا يحسن أن تروهن وهنّ على هذه الحال ، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه .

(٢) (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لكم بدخوله ، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا في البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال : كانوا يتحيمون فيدخلون بيت النبي صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأُنزل الله ( يا أيها الذين آمنوا) الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه في التقلأ ومن ثم قيل هي آية التقلأ .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) أى إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه ، إلى ما فيه من تضيق المنزل على أهله ، لكنه كان يستحي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه ، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج .

وفى هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت ، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم فالتثقل مذموم في كل مكان ، محتمر لدى كل إنسان .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما « حسبك في الثقلان أن الله عز وجل لم يحتملهم »

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآذب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما في العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لا تسامح فيه .

(٣) ( وإذا سألتهم متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ) أى وإذا سألتهم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتى لسن لكم بأزواج ، شيئا تمتنعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهم ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربي عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تملأن عليه فى العيرة « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَبَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فبزلت ، كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

( ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن ) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أظهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أظهر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر ، وجاء في الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :  
 والمرء ما دام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر  
 يسر مُقلته ما ساء مُهجته لا مرجا بانتفاع جاء بالضرر  
 ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم  
 على ملاحظته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا  
 فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس بالحدِيث  
 الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعلىنا  
 أن نقابله بالحسنى كفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله .

( ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد  
 مفارقتهم بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن  
 أمهات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .  
 ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

( إن ذلكم كان عند الله عظيما ) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده  
 أمر عظيم وخطب جليل لا يقدر قدره غير الله تعالى .  
 ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى  
 ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمة حيا وميتا .

ثم بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله :

( إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما ) أى إن ما تكتمه  
 ضمائركم وتنطوى عليه سرايركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ  
 وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام  
 وإن كان عاما بظاهره فالمتصودما يتعلق بزواجه عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أُنْتَهَى أَنْ تَكَلَّمَ بِنَاتِ أَعْمَامِنَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ لَئِنْ مَاتَ مُحَمَّدٌ لَتَتَزَوَّجَنَّ نِسَاءَهُ .

وأخرج جويبر عن ابن عباس « أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقومَنَّ هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يا رسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكراً ولا قالت لي ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : قد عرفت ذلك : إنه ليس أحدٌ أُغْيِرَ من الله تعالى ، وإنه ليس أحدٌ أُغْيِرَ مني ، فمضى ثم قال ما يمنعني من كلام ابنة عمي ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأُنزِلَ اللهُ الآية ، فأعقق الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله ، وحج ماشياً لأجل كُتْبِهِ . » وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم م سلمة بعد أبي سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نساءه فنزلت .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخْوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

### المعنى الجملي

بعد أن ذكر أن نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيراً .

رؤى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يا رسول الله فكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت .

## الإيضاح

لائم على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع أو أبناهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القرى منهن والبعدي ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد لما في الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله في السر والعلن فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضهم ببعض ، خلوتكم مثل ملككم فاتقوه فيما تأتون وما تدرؤن .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبي حال خلوته بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أورد ذلك بوجوب احترامه في الملأ الأعلى بقوله : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفي الملأ الأدنى بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

## الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبي) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار؛ فالمعنى كما قال ابن عباس: إن الله يرسم النبي والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه في الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلى عليه طالبين له مغفرة من الله .  
وقد أمرنا بأن نصلى عليه بقوله :

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ) أى يا أيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعتة والانقياد لأمره في كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بالسننكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن مجزة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . »

روى عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى في وجهك ، فقال : جاءني جبريل فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا . »

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَتُحَرِّمُوا عَلَيْهِمْ مَا كَتَبْنَا وَإِنَّمَا مَحْنُنًا (٥٨) .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيه في بيته وفي الملأ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بالصاق عيب أو نقص به .

## الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصي ،  
ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللَّهِ مَعْلُودَةٌ» والنصارى الذين قالوا «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ»  
والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه ، تعالى عن ذلك  
علواً كبيراً .

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم ،  
فمن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

(لعنهم الله في الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله في الدنيا ،  
لجعلهم يتبادون في غيرهم ، ويدسّون أنفسهم ويستمرّثون سبل الغواية والضلالة التي  
ترديهم في النار وبئس القرار ، وفي الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه .

(وأعد لهم عذابا مهينا) أى وهياً لهم عذابا يؤلمهم ويجعلهم في مقام الزرابة  
والاحتقار ، والخزى والهوان .

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه ، بين ذلك بقوله :

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا  
مُهْتَابًا وَإِنَّمَا مُبِينًا .

## شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا : أى بغير جنابة يستحقون بها الأذى ، والبهتان : الكذب  
الذى يبهت الشخص لفضاعته ، وإنما مبينا : أى ذنبا واضحا بينا .

## الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه وماهم منه براء ، اجترحوا  
كذبا فظيحا ، وأتوا أمرا إذا ، وذنبا ظاهرا ليس له ما يسوغه أو يقوم مقام العذر له .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها ؛ فخطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني؟ » .

وروى أبو هريرة « أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرايت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أي الربا أربي عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربي الربا عند الله استحلل عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ ( والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ) » .

يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ  
مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا (٥٩) لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ  
فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْمُؤِينَ  
أَينَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ  
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

### شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخطار ،  
يدنين : أي يرخين ويسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أذني ثوبك على  
وجهك ، أذني : أي أقرب ، أن يعرفن : أي يميزن عن الإساءة ، مرض : أي ضعف

إيمان بانتها بهم حرمت الدين ، والمرجعون : هم اليهود الذين كانوا يلقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزال ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مرزلة غير ثابتة ، لتغريك بهم ، أى لسلطنتك عليهم ولتحرشنتك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتاننا وإثما علينا ، زجرا لهم عن الإيذاء — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم في الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع . روى أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلا لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلموا في ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزى والتستر ليمتازن ويهين فلا يطعم فيهن طامع .

### الإيضاح

(يأبها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه وبناته بأن يسدن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليمتازن عن الإماء . روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق ردوسهن بالجلابيب ويدين عليهن واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن ردوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها .

وإجمال ذلك — إن على السلعة إذا خرجت من بيتها حاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطي الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .  
ثم علل ذلك بقوله :

( ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ) أى ذلك التستر أقرب لمعرفةن بالعفة فلا يتعرّض لهن ولا يلبقن مكروها من أهل الريبة احتراما لهن منهم ، فإن التبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد في كل عصر ومصر ، ولا سيما في هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

( وكان الله غفورا رحيما ) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :  
( نئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغربتك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ) أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يستمرّون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الزيب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف في المدينة الذين ينشرون الأخبار المنفقة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكن من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لنسطنتك عليهم وتدعونك إلى قتالهم وإجلأهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد توعد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النفي من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرا .

(٢) من في قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسايمهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملمونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يحاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله وبابك ، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس بيدع فيهم كما قال :

( سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلومهم ويقهروهم ، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل ، لا بتناها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤)

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ

فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا

إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ

الْعَذَابِ وَالنَّهْمِ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)

## شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا ، وكبراءنا : أى علماءنا ، ضعفين من العذاب : أى مثل عذابنا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث في الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة فذكرهم بيوم القيامة وبين ما يكون لهم في هذا اليوم .

## الإيضاح

( يسألك الناس عن الساعة ) أى يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهمك والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال التعمت العالم بما يجب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيحيب بمثل ما في التوراة من رد أمرها إلى الله أم يحيب بشيء آخر ؟ فلقنه الله الجواب عن هذا بمجمل رد ذلك إليه تعالى فقال :

( قل إنما علمها عند الله ) الذى أحاط علمه بكل شيء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفي علمها من أحد غيره بقوله :

( وما يدريك ) أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ؟ أى لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

( لعل الساعة تكون قريبا ) أى لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَلَمْ يَأْمُرُ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .  
 وفي هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيك للمتعمنين والممتحنين  
 ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

( إِنْ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ) أى إن الله أبعده الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتقد وتفسر ليصلبهم فيها ، ما كثرين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أياهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولى والنصير بقوله :  
 ( لا يجردون وليا ولا نصيرا ) أى لا يجدون حينئذ من يستقدمهم من السعير وينجيهم من عذاب الله بشفاعته أو نصرة كما هي الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصائب والنكبات .

( يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ) أى لا يجدون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى ، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة - يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .  
 ثم ذكر بعض معاذيرهم بالقائم التبعة على من أضلهم من كبارهم  
 وسادتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزلونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدايتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لا يجديه نفعا .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى من أوردتهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوهم فى بلوهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لا يخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثل عذابنا الذى تعدبنا به : مثلاً على ضلالهم ، ومثلاً على إضلالهم إيانا ، واخرهم خزيًا عظيمًا واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبابكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعونه فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ  
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) .

### شرح المفردات

الوجه : هو ذو الجاه والميزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين - أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لا يورث الكفر كهدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم للفقهاء ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

## الإيضاح

يأبىها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لا يحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله فرموه بالغيب كذبا وباطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لا يسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعيّنه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خلقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أودى بأكثر من هذا فصبر » .

وزوى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لا يبتغى أحد عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال قسمه ، قال فررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أريد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبت حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئا وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمر وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصر » .

ومن هذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالتدح في أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب في بدنه كما روى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) .

### شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرعى ولم يعدل به عن سمتة .

### المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سببا في الفوز والنجاة في الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والخطوة إليه .

## الإيضاح

يأينها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه فاستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا  
في رسول الله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر ، حتماً غير باطل ، يوفقكم لصالح الأعمال  
ويغفر لكم ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها .

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينته عما نهاه عنه ويقل السيد من  
القول فقد ظفر بالثوبة العظمى والكرامة يوم العرض الأكبر .

والمخالصة — إنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق في الأقوال ، والخير  
في الأعمال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ، ثم وعدهم على ذلك بأمرين :  
(١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى  
عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم في الجنة خالداً فيها أبداً .

(٢) مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ  
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)  
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

## شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن  
عليه المرء من أمر ونهي في شؤون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكليف الدينية ،  
وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين واثمنهم عليها وأوجب  
عليهم تلقيها بالطاعة والالتقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشيء منها ،

فأبين : أى كُنَّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

### المعنى الجملى

بعد أن بين عزَّ اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم - أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إزام .

### الإيضاح

( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجزائها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهي والتبصر فى شئون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنته وصغر جِرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتحفف من سلطانها عليه وتكسبت من جماها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

( ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المناقطين والمناقطات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين  
والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر  
في العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

( وكان الله غفورا رحيما ) أى وكان الله متاراً لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ،

ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافي  
ما فرط منه من الزلات ، وأتابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز  
العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

### تلييه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشؤون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ،  
وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى  
ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم  
وجدوا مغمرا فى الإسلام وأصابوا هدفا يرمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه  
السامعين ، وأتى لهم ذلك ، ونيهم فكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العتقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمتة .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش  
مع خديجة خمساً وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنة إذ ذاك ناهزت

الحنسين ، وكان قد تزوجها في شرح شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وأحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيها لها حتى توفيت فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكرها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التي حدثت النبي صلى الله عليه وسلم إلى التعدد؛ وهي قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

### الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج في تلقيه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحي المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحي الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذي فرصة ممسكة (قطعة قطن) فتوضي - قالها ثلاثا وهو في كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقي عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبي دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحبراء » يريد عائشة رضی الله عنها ، والعرب تقول امرأة حمراء : أوى بيبضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة في أول أمرها كانت في حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لبدود عوادي الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قریش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يزون أن أعظم شرف وأمن قرابة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبیه وقریبهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر رضی الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لا يعبأ بعدها بعمري ، ولم ينكشف عنه الهم حتى رجعت ، وأن علياً كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رغب في أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبي طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصر في القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

### الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سودة بنت زمعة امرأة السكران بن عمرو الذي أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلامعين ، وهي أرمل رجل مات في سبيل الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظاً بعميدته ، وقد شاركته هذه الزوجة في أهوال التغريب والنبئ ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاماً ، وكان زواجه منها سبباً في دخول خالد بن الوليد في دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله في الإسلام أيام عُزْرَتْ مَحْجَلَةٌ - إلى أن زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم يستر لذوي قرباها. وسيلة للعيش قطعوا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جويرية وكان أبوها الخارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فخار بهم حتى هزموا ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنسبها وطلبت حرיתה فتذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعدا ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسجون بعد أن اقتسموا بني المصطلق : إن أصهار رسول الله لا يسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبي بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرّة عين لها ولأبويها ونفرا لذوي قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير ( ابن أختها ) يفاخر بني هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذي توفى مجروحا في موقعة بدر ؛ وفي تلك الحقبه كانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان قد يوفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ليستدبم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأنفت نفسه فشكاه إلى أبي بكر فقال له لعلها تزوج من هو خير منه ويتزوج من هي خير منها له ( يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ) .

(٦) تزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، وكانت قد وقعت

في السبي مع عشيرتها ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رأفة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهي السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام وينضوا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهي التبني بتنزيل الدعوى منزلة الابن الحقيقي ، وإذ أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في هذا ، فسعى في تزويج زيد مولاه بعد أن اعتقه بزینب ذات الحسب والمجد فأنت هي وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعوى غير كفاء ، فأنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هذا القران مترفة عن زيد ضائقة به ذرعا فأثر فراقها فسأل الرسول الإذن في ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنة .

ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة ظلتها فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهي إعطاء المتبني حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا في أثناء تفسير السورة بشيء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبي صلى الله عليه وسلم خول لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه - لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النصرة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن في سن الكهولة أو جاوزتها .

## أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام

يجدر بذوى الحصافة في الرأي أن ينظروا إلى الأسباب التي دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقموا عليه ذلك ويرموه بالقسوة ، فإن في بعضها ما هو موجب للتعدد لا يجيزه بحسب

وهالك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحيانا بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافي الشرف والمروءة ويغضب الله ورسوله إن لم يبيح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانیه هؤلاء من الأعمال الشاقة التي تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لا يجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشؤونهن ، فيكثر الفساد ويلحق الأسر العار وتعضن الحياة بأنبيائها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتملأ سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع منقص إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم في الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص في النسل بسبب منع التعدد من ناحية وإحجام كثير من شبانهم عن الزواج والاجتراء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء في كثير من البلاد الغربية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر في توريثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التي أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتقلل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التي تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمي يخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التي تجعل النسل ضعيفا ضاويا لا يستطيع الكفاح في الحياة .

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

- (١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .
- (٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحي مع ضرب المثل لذلك .
- (٣) إبطال المادة الجاهلية وهي إعطاء المتبني حكم الابن وبيان أن الدين منه براء .
- (٤) إبطال التوريث بالخلف والتوريث بالهجرة ، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة .
- (٥) ذكر النعمة التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب .
- (٦) تحيير النبي نساءه بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة .
- (٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع في القول وأمرهن بالقرار في البيوت ، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله ، ونهيهن عن التبرج .

- (٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٩) ما أحل لثيبه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .
- (١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته اطعام ونحوه .
- (١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شيء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .
- (١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .
- (١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .
- (١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟
- (١٥) النهى عن إيذاء النبي حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .